

هل يمكن لنص أن يغير العالم؟

لوسيان جوم

ترجمة: عبد الله المتوكل



© 2015

جميع الحقوق محفوظة
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث

All rights reserved
Mominoun Without Borders

هل يمكن لنص أن يغير العالم؟*

لوسيان جوم

ترجمة: عبد الله المتوكل

تقديم:

أنجزت مجلة Le Point الفرنسية في عدد خاص ملفاً هاماً بعنوان "النصوص التي غيرت العالم"، ساهم فيه نخبة من المتخصصين في حقول معرفية متعددة. تفرع إلى ثلاثة محاور تغطي ثلاث حقوب متعاقبة: القديمة والقروسطية والحديثة. وقد أتى على شكل تاريخ مختصر لتطور الروح وفعلها في العالم بمختلف تجلياتها الدينية والفلسفية والعلمية والسياسية، مبرزاً أهمية الفكر في صنع التاريخ. والنص الذي قمنا بترجمته، اقترح كمقدمة لهذا الملف، وقد حاول فيه صاحبه Lucien Jaume - وهو مدير وحدة بحث بالمركز الوطني للبحث العلمي وأستاذ بمعهد الدراسات السياسية بباريس - أن يثير بعض الإشكالات التي يطرحها عنوان الملف ذاته، والتي تفرض على المؤرخ أن يتسلح بمجموعة من الوسائل المنهجية، وأن يتحرر من مجموعة من العوائق لكي يتمكن من إدراك قيمة وحدود النصوص التي ننعتها بالثورية في علاقتها بمفعولاتها الفكرية والاجتماعية والسياسية.

النص:

هل يمكن لنص أن يغير العالم؟ يبدو، بدون شك، أنّ الجواب سيكون بالإيجاب إذا ما فكرنا في **العهد الجديد** أو في **البيان الشيوعي** لماركس وإنجلز أو في **العقد الاجتماعي** لجان جاك روسو. غير أنه ينبغي، ربما، أن نتوفر على الوسائل التي تتيح التمييز بين السمة الثورية للنص في حد ذاته وبين مفعولاته التاريخية المباشرة أو البعيدة أو التي لا وجود لها. لنأخذ، على سبيل المثال، المجال العلمي؛ فالمقال الذي كرّسه ألبير أينشتاين سنة 1905 للنسبية الخاصة، كان ثورياً في منهجه وقيّمته، لكنه انتشر ببطء، ضد عوائق عديدة، قبل أن يحدث ثورة في الفيزياء. وهذا يعود أيضاً إلى كون الاختبارات التجريبية لهذا الفكر المكتمل (النسبية العامة) هي نادرة ومعقدة الإنجاز، وإلى الوضعية الخاصة للثورات العلمية، التي لا تتحقق أبداً دفعة واحدة، إذا سلمنا بتحليلات توماس كون التي أصبحت اليوم كلاسيكية¹.

لنأخذ مثلاً آخر، وليكن، هذه المرة، من المجال السياسي الديني، إنّ فكر الجانسينية *janséniste*، كما بينت ذلك المؤرخة كاترين مير² Chaterine Maire، الذي تبلور في القرن السابع عشر داخل دير بور رويال Port-Royal في مرحلة ازدهاره، لم يصبح منجنيقاً مصوباً ضد الحكم المطلق، إلا عندما استعملته في القرن الثامن عشر البرلمانات الأوربية في صراعها ضد الملكية.

¹ Thomas kuhn, la structure des révolutions scientifiques 1970

² Catherine Maire, de la cause de dieu à la cause de la nation, Gallimard 1998

من المهم أن نحدد السمات التي تميز ثورة ما. ينتج حدث معين: 1. يشكل قطيعة؛ 2. تكون وراءه قوى تستهدف الاستحواذ على السلطة؛ 3. ضد الشرعية القائمة؛ 4. تؤسس نظاماً جديداً يقصي السابق ويضعه في إطار الماضي: هكذا ابتدع المنتصرون في ثورة 1789 كلمة جديدة هي "النظام القديم". فالثورة هي هذه الظاهرة حيث يرسم المنتصرون تاريخاً جديداً وقطيعة بين ما قبل [الثورة] وما بعد [ها]، مع احتمال تغيير التقويم الزمني المعتمد.

من هنا تأتي التماثلات، وأيضاً الاختلافات، التي يمكن ملاحظتها بصدد نص يوصف بـ "الثوري". إذ غالباً ما ينتعش هذا الأخير من طرف أسلافه لقلب منطقته: إنها حالة العقد الاجتماعي، الذي وُجِهَ ضد سيادة الملك القائمة على الحق الإلهي، أو حالة ماركس، الذي قال في رسالة له إلى جوزيف فايدوماير Weydemeyer، إنَّ الفضل في اكتشاف وجود الصراع الطبقي في المجتمع الحديث أمر يدين به إلى أعمال مؤرخين من أمثال غيزو Guizot وتييرز Thiers ومينيي Mignet.

أضف إلى ذلك، أن النص الذي ننعته اليوم بالثوري، لا يستهدف بالضرورة في الأصل، تغيير واقع عصره، بل بالأحرى الحياة الأخلاقية والروحية: إنَّ اعتبار المسيحية جماعة دينية متمردة كانت وجهة نظر رومانية (وأيضاً كنيسية [يهودية] de la synagogue)، لكنها لم تكن وجهة نظر المسيح الذي "لم تكن مملكته من هذا العالم". وعلى عكس ذلك، من كان أكثر ثورية من لوثر، في حين أنه أثناء حرب الفلاحين بين 1524 و1526 ساند قمع الأمراء للمتصوفة المتمردين؟ إنَّ الثوري في مجال الإيمان يمكن أن يكون من الناحية الاجتماعية محافظاً، والعكس ليس مستحيلاً أبداً.

مفعولات خفية

يجب أن نحاط من الفكرة التي تسلم بوجود علاقة سببية مباشرة بين النص - الذي يتضمن فكراً مجدداً ويزعزع المعايير القائمة - والواقع الاجتماعي. فالحركة اليقوبية، وروبسبير Robespierre نفسه أو، على نطاق أوسع، النواب الذين سُموا بالجليليين Montagnards احتجوا بروسو واستشهدوا به. لكن المؤرخ عليه أن يتساءل: بأي روسو احتجوا؟ وفي أية مرحلة من مراحل الثورة؟ ومن أجل أية رهانات في الصراعات الثورية؟ فإذا درسنا الخطاب اليقوبي نلاحظ أنه يعطي تفسيراً خاطئاً لفكر روسو، وما يضاعف احتمال السقوط في سوء فهمه، هو أنه فكر جد معقد وملتبس أحياناً إلى درجة يصعب معها الحسم بصدد بعض أطروحاته (فمثلاً، متى وأين تتكلم "الإرادة العامة" الخالصة؟). وحسب رأي تبسيطي، ليس روسو هو من "أنتج" الثورة، بل الخطاب الثوري الذي في إطار بحثه عن صياغته ومشروعيته وظَّف بعض أفكار روسو.



ومع ذلك، سيقال توجد نصوص أمكن اعتبارها بحق ثورية، بالمعنى الذي يعتبرها دشنت عصرًا جديدًا. مثل **الخطاب في المنهج** لديكارت، الكتاب العالم الذي، ولأول مرة مقارنة مع مؤلفات عصره، لم يكتب باللاتينية. فأي شيء أكثر جرأة، بعد تمرد لوثر ضد كنيسة روما، من دعوة هذا الكتاب إلى الاستناد في البحث عن الحقيقة على "الحس السليم" وعلى الحكم الداخلي الصادر عن العقل وحده والذي يضع موضع شك كل ما يشكل سلطة؟ في القرن التاسع عشر، في حقبة توكفيل، وفي أعماله هو ذاته، نعثر باستمرار على هذه الفكرة التي ترى في لوثر وديكارت العقليين العظميين الثوريين لأنهما حملا الحداثة ونقلها إلى أمريكا.

لكننا نلاحظ هنا أنّ نصاً قوياً يمكن أن يؤثر في العقول دون أن يُترجم ذلك إلى إحداث انقلاب في العالم السياسي والاجتماعي، أو أنّ ذلك يمكن أن يحدث فقط بعد عدة قرون؛ أو أيضاً تبعاً لمفعولات غير متوقعة تربك رسالة وروح النص الأصلي. هل يمكن القول إنّ "الاشتراكية الواقعية" لبريجنيف هي بنت **البيان الشيوعي** لماركس وإنجلز أم أنها استلهمت من **نقد برنامج غوتا** الذي يحدد الأسس الأولى للاشتراكية؟

يجب أيضاً أن نحتاط من أساطير التاريخ الفكري: إنّ ما زرع العالم الفكري والفلسفي والسياسي أيضاً، ليس بالدرجة الأولى **البيان الشيوعي** لماركس، بل هو هذا البيان المختصر الذي نشر بعد وفاته، والمعنون بـ "الأطروحات حول فيورباخ"، بأطروحته الحادية عشرة الشهيرة: "لم يعمل الفلاسفة إلا على تفسير العالم بطرق مختلفة، في حين أنّ ما يهم هو تغييره". والتي كانت وراء ظهور جدال حول "وحدة النظرية والممارسة" أثار آلاف التعليقات، وما لا يحصى من الخصومات داخل الحركة الشيوعية، انطلاقاً من الخصومة بين ماو Mao وقادة موسكو، وخلق بين صفوف الفلاسفة، أزمة مازالت ربما مستمرة إلى اليوم، حول وضعية الفكر في علاقته بـ "البراكسيس"، أي الفعل الذي يغير العالم.

وداخل الفكر الليبرالي، هل حقاً أنّ كتاب **ثروة الأمم** لآدم سميث Adam Smith هو الذي كانت له مفعولات كبرى، أم أنّ الأمر يرتبط بالأحرى بإحدى عبارات جون لوك John Locke الواردة في **مقالتين في الحكم المدني**: "حيث لا يوجد قانون لا توجد حرية"؟ إنّ الليبرالية تجد هنا موقفها الأساسي الذي وجه تقليدها، وهو ما ينسأه خصومها بسهولة: إنّ السلطة بدون قوانين والسوق بدون قواعد لا يؤديان إلى التحرر من "هيمنة الإنسان على الإنسان" التي هي سمة الطغيان حسب مفكري الأنوار.

إنّ منطق الثورات الفكرية والأخلاقية أو الروحية ليس هو منطق الثورات الاجتماعية. وتبعاً لذلك، يمكن للأفكار أن "لا تحكم العالم" كما كتب ماركس. والحال أنّ هذه العبارة تنسف نفسها بنفسها، لأنّ هذه الفكرة قد حكمت باستمرار ملايين الأفراد.

هناك بالفعل نصوص ثورية يمكنها إلهام فرد عظيم مثل القديس فانسون دو بولس Vincent de Paul الذي أثار الإنجيل دربه، أو إلهام حشود بأكملها في سعيها إلى الحرية في هذا العالم.

MominounWithoutBorders



Mominoun



@ Mominoun_sm



الرباط - أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com
www.mominoun.com